الوصايا العشر للحوار

قواعد أساسية للحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات

ليونارد سويلدر

هذه هي النسخة الكلاسيكية من "*الوصايا العشر للحوار*"، والتي تم كتابتها قبل أن يتم ابتكار تعبير **الحوار المُعمّق**. كذا فإن هذه النسخة تركز على "حوار العقل": وهي القاعدة الأولى من بين أربع قواعد أساسية والتي نُشِرت تحت عنوان "قواعد أساسية للحوار بين الأديان،" في مجلة الدراسات المسكونية (the Journal of Ecumenical Studies)، 15,3 (صيف 1978)، ص. 413 وما بعدها؛ ثم أجريت لها بعض الإضافات ونشرت تحت عنوان "الوصايا العشر للحوار: قواعد أساسية للحوار بين الأديان، في نفس المجلة 20,1 (شتاء 1983): 1-4؛ ومنذ 1984 فصاعداً كان العنوان: "الوصايا العشر للحوار: قواعد أساسية للحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات." هذه الوثيقة أُعيد نشرها على الأقل في 39 مطبوعة في 9 لغات مختلفة. هذه الإرشادات التوجيهية التي تتسم بكونها ذات طبيعي بديهي أطلق عليها "الوصايا العشر للحوار" لأسباب تعليمية ذات صلة بسهولة تذكر هذا العنوان: إذ لا شك أن اليهود والمسيحيين والمسلمين سيكون باستطاعتهم تمييز وتذكر هذا المصطلح "الوصايا العشر" بدرجة من السهولة. كذلك فإن العنوان باللغة الإنجليزية (The Dialogue Decalogue) به نوع من الجناس وهذا أيضاً يساعد على سهولة التذكر.

الحوار هو حديث يتناول موضوعاً مشتركاً بين شخصين أو أكثر لديهم آراء مختلفة، والهدف الرئيسي من ورائه أن كل مشارك يتعلم من الآخر لكي ما يتمكن/تتكمن من التغير والنمو. وهذا التعريف للحوار يجسد الوصية الأولى للحوار.

في الماضي، كنا في الميدان الديني-الإيديولوجي نجتمع معاً لكي نتناقش مع من يختلفون معنا، مثلاً، الكاثوليك مع البروتستانت. وكانت دائماً غايتنا هي إما إلحاق الهزيمة بالخصم، أو لنتعلم عن هذا الخصم حتى ما نتمكن من التعامل بفعالية معه، أو على أفضل تقدير لكي نتمكن من التفاوض معه. فإذا ما حدثت مقابلة مع أحدنا الآخر على الإطلاق، كان هذا في صورة مواجهة – أحياناً تتسم بالطابع الجدلي والهجومي العلني، وأحياناً أخرى تكون كذلك لكن بشكل مستتر، غير أن هدفها النهائي كان دائماً هو هزيمة الآخر، إذ كنا على قناعة بأننا وحدنا من يملك الحقيقة المطلقة.

غير أن الحوار ***ليس*** جدالاً. في الحوار يجب على كل شريك أن يصغي إلى الآخر بأقصى قدر ممكن من الانفتاح والتعاطف في محاولة لفهم موقف الآخر بأقصى قدر من الدقة كما لو كان هذا هو موقفنا نحن. مثل هذا الاتجاه يتضمن بصورة تلقائية افتراض أنه في أي لحظة يمكن أن نجد موقف الآخر مقنعاً بشدة لدرجة أننا لو التزمنا بأن نسلك بالأمانة، فسوف نغير نحن موقفنا، وبالطبع التغير قد يكون مزعجاً.

نحن هنا، بالطبع، نتكلم عن نوع محدد من الحوار، هو الحوار بين الأديان أو بين الإيديولوجيات. من أجل إقامة مثل هذا الحوار لا يكفي أن يقوم شركاء الحوار بمناقشة موضوع ديني أو إيديولوجي، مثلاً "المعنى الغائي للحياة وكيف نحيا متسقين معه." ولكن بالأحرى، يجب عليهم أن يأتوا إلى الحوار باعتبارهم أشخاص يمثلون إلى حد ما جماعة أو طائفة دينية أو إيديولوجية. فإذا لم أكن مسيحياً أو ماركسياً، على سبيل المثال، لا يمكنني أن أنضم باعتباري "شريكاً" في حوار مسيحي-ماركسي، غير أنني بإمكاني أن استمع لهذا الحوار وأطرح بعض الأسئلة للحصول على معلومات، وكذلك يمكنني أن أقدم بعض التعليقات النافعة.

من الواضح أن الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات هو أمر جديد في عالمنا. حيث لم يكن من الممكن تصوره ناهيك عن القيام به في الماضي. فكيف إذن يمكننا أن نشارك بفعالية في هذا الأمر الجديد؟ فيما يلي بعض القواعد الأساسية، أو "الوصايا،" للحوار بين الأديان والإيديولوجيات والتي يجب اتباعها إذا ما أردنا القيام فعلاً بحوار حقيقي. هذه ليست قواعد نظرية، أو وصايا معطاة من "برج عاجي،" لكنها قواعد تم تعلمها من خلال خبرات عملية شاقة.

الوصية الأولى: *الغاية الأساسية من الحوار هي أن نتعلم، أي أن نتغير وننمو في إدراكنا وفهمنا للحقيقة، ومن ثم نسلك وفقاً لذلك.* دعنا نقول إنه، على الأقل، حقيقة أني أتعلم أن الآخر المشارك في الحوار يعتقد "بهذا الأمر" بدلاً من "ذاك" هي تغير ولو جزئي من موقفي تجاهه/تجاهها؛ والتغيير في موقفي في حد ذاته هو تغيير هام بالنسبة لي. نحن ندنو إلى الحوار من أجل أن نتمكن ***نحن*** من أن نتعلم ونتغير وننمو، وليس من أجل أن نتمكن من أن نفرض التغيير على ***الآخر***، وهذا ما يأمله المرء عند مشاركته في الجدال – وهو أمل يتناسب تحقيقه عكسياً مع الوتيرة والشراسة التي يتم بها الدخول إلى الجدال. بينما على الجانب الآخر، ولأن في الحوار ***كل*** مشارك يأتي وفي داخله رغبة في التعلم والتغيير لنفسه/لنفسها، فإن الشريك الآخر لا شك أيضاً سوف يتغير. ومن ثم فإن الهدف من الجدال، وأكثر من ذلك بكثير، يتحقق بفعالية فائقة من خلال الحوار.

الوصية الثانية: *يجب أن يكون الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات مشروعاً له وجهين – الأول ضمن حدود المجتمع الديني أو الإيديولوجي الواحد، والثاني فيما بين المجتمعات الدينية والإيديولوجية المختلفة.* بسبب الطبيعة "الطائفية" للحوار بين الأديان (أي أن كل مشارك ينضم إلى الحوار ممثلاً لطائفة أو مجتمع ديني أو إيديولوجي بعينه)، وحيث أن الهدف الأساسي للحوار هو أن كل شريك يتعلم ويغير من نفسه، فإنه من الضروري أيضاً أن كل شريك ينضم إلى الحوار ليس فقط مع شريكه المغاير له في عقيدته – على سبيل المثال، اللوثري والأسقفي – ولكن أيضاً مع من يشاركونه في عقيدته، أي مع اللوثريين الآخرين، وذلك لكي يشارك معهم ثمار الحوار بين الأديان. إذ بهذا وحده يمكن للمجتمع الديني بأكمله في النهاية أن يتعلم ويتغير، وأن يتحرك نحو المزيد والمزيد من البصيرة في إدراكه للواقع.

الوصية الثالثة: *يجب على كل مشارك أن يأتي إلى الحوار بصدق وأمانة كاملين.* ينبغي على المشارك أن يبين بوضوح في أي اتجاه تتحرك توجهات الأغلبية والأقلية في التقليد الخاص به، وما هو التغير الذي يمكن أن يطرأ في المستقبل، وإذا لزم، أين يواجه المشارك/المشاركة صعوبات مع التقليد الذي ينتمي هو/هي إليه. ليس هناك مكان في الحوار لأي مظاهر زائفة.

والعكس بالعكس – يجب على كل مشارك أن يفترض نفس الصدق والأمانة الكاملين في المشاركين الآخرين. إذ ليس غياب الأمانة والصدق هو وحده فقط هو ما قد يعيق حدوث الحوار، ولكن أيضاً عدم افتراض الأمانة عند الشريك سوف ينتج عنه نفس العرقلة للحوار. إيجازاً: لا ثقة، لا حوار.

الوصية الرابعة: *في الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات لا يجب أن نقارن بين مُثُلنا العليا وبين ممارسات الشريك،* ولكن علينا بالأحرى أن نقارن بين مُثُلنا العليا وبين المُثُل العليا للشريك، كذا يمكن أيضاً أن نقارن بين ممارساتنا وممارسات الشريك. على سبيل المثال، يمكن مقارنة الممارسة الهندوسية في الماضي التي فيها كان يتم حرق الأرامل وهنّ مازلن أحياء (*سوتي*) بالممارسة المسيحية في الماضي لحرق الساحرات والمتهمين بالهرطقة.

الوصية الخامسة: *يجب على كل مشارك أن يقدم تعريفاً لنفسه.* فوحده اليهودي، على سبيل المثال، يمكنهم تعريف ماذا يعني أن تكون يهودياً. أما بقية المشاركين فيمكنهم فقط أن يشرحوا كيف يبدو ذلك من الخارج. علاوة على ذلك، حيث أن الحوار هو وسيط ديناميكي، نجد أنه بينما يأخذ كل مشارك في التعلُم، فإن هذا المشارك اليهودي سوف يتغير أيضاً ومن ثم فسيستمر على الدوام في التعمق والامتداد والتعديل لتعريفه الذاتي لنفسه كيهودي – لكونه حريصاً على أن يظل في حوار متواصل مع رفاقه اليهود الآخرين. من ثم يلزم على كل شريك في الحوار أن يقدم تعريفاً لمعنى أن يكون عضواً أصيلاً في التقليد الخاص به.

والعكس بالعكس – من يتم تقديم شرح عنه يجب أن يتمكن من التعرف على نفسه في هذا الشرح. هذه هي القاعدة الذهبية في تفسيراتنا لبعضنا البعض في الحوار بين الأديان، كما كان الرائد في الحوار بين الأديان رايمندو بانيكار (Raimundo Panikkar) يكرر دائماً. فمن أجل أن نفهم أحدنا الآخر، سوف يحاول كل مشارك في الحوار أن يعبر عن نفسه/نفسها وعما يفهمه من حديث الشريك الآخر؛ ويجب أن يتمكن الشريك من أن يميز نفسه/نفسها في هذا التعبير. ويضيف ويلفرد كانتول سميث (Wilfred Cantwell Smith)، الخبير المخضرم في الحوار بين الأديان، أن هذا التعبير يجب أيضاً أن يكون قابلاً للتحقق منه كذلك بواسطة أشخاص آخرين من النُقَّاد المراقبين.

الوصية السادسة: *يجب على كل مشارك أن يأتي إلى الحوار بلا افتراضات جامدة ومتحجرة فيما يتعلق بنقاط الخلاف.* بالأحرى، ينبغي على كل مشارك/مشاركة ليس فقط أن يصغي للشريك الآخر بانفتاح وتعاطف بل أيضاً أن يسعى جاهداً لأن يتفق مع شريك الحوار بقدر المستطاع بينما يظل محتفظاً بأمانته تجاه تقليده الخاص؛ وفي النقطة التي لن يكون باستطاعته على الإطلاق أن يتفق مع الشريك دون أن يخالف أمانته تجاه عقيدته، هنا تحديداً تقع نقطة الخلاف الحقيقية – والتي غالباً ما يتضح أنها مختلفة عن نقطة الخلاف التي كنا نظنها مخطئين قبل أن ندخل إلى الحوار.

الوصية السابعة: *الحوار لا يمكن أن يحدث إلا بين متساويين – كلاهما يأتي لكي يتعلم،* أو "مساو مع مساو" (*par cum pari*) كما يصفهم مجمع الفاتيكان الثاني. يجب على كلا الطرفين أن يأتيا إلى الحوار لكي يتعلما من أحدهما الآخر. وبالتالي، فإذا مثلاً كان المسلم يرى الهندوسية كديانة أدنى منزلة، أو الهندوسي يرى الإسلام أدنى منزلة، لن يكون هناك أي حوار. ولكن إذا ما أردنا حدوث حوار أصيل وحقيقي بين الأديان وبين الإيديولوجيات يجمع مسلمين وهندوس، فعندها يجب على المسلم والهندوسي أن يأتيا بصورة أساسية لكي يتعلما من أحدهما الآخر؛ فعندها فقط سيكونان "مساو مع مساو" par cum pari. وتشير هذه القاعدة أيضاً لعدم إمكانية وجود حوار من اتجاه واحد. على سبيل المثال، المناقشات اليهودية-المسيحية التي بدأت في ستينات القرن المنصرم كانت بالأساس خطوات أولية مبكرة في الحوار بين الأديان. لعله من المفهوم والمتوقع أن اليهود جاءوا إلى هذه المناقشات فقط لكي يقدموا دروساً للمسيحيين، على الرغم من أن المسيحيين جاءوا فعلاً بالأساس لكي يتعلموا. ولكن، لكي ما يحدث حوار حقيقي بين اليهود والمسيحيين، يجب على اليهود أيضاً أن يتعلموا؛ فعندها فقط سوف يكون هذا حواراً بين متساويين.

الوصية الثامنة: *لا يمكن للحوار أن يحدث إلا على أساس الثقة المتبادلة: ينبغي أولاً تناول القضايا التي من المرجح أن توفر أرضية مشتركة، وبالتالي تقيم نوعاً من الثقة بين المشاركين.* على الرغم من أن الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات يجب أن يتم على أساس نوع من البعد "الطائفي"، بمعنى أن المشاركين في الحوار يشاركون باعتبارهم أعضاء في طائفة أو جماعة دينية أو إيديولوجية – مثلاً، كماركسيين أو بوذيين – إلا أنه أيضاً على نفس القدر من الصواب أنه لا يحق المشاركة في الحوار سوى *للأشخاص* فقط. لكن الحوار بين الأشخاص لا يمكن أن يقوم إلا على الثقة المتبادلة بين الأشخاص. من ثم فإنه من الحكمة ألا يتم مناقشة المشكلات الأكثر صعوبة في بداية الحوار، بل يتم أولاً تناول القضايا التي على الأرجح سوف توفر بعض الأرضية المشتركة، وبالتالي تؤسس للثقة بين المشاركين. عقب ذلك وتدريجياً بينما تتعمق هذه الثقة بين الأفراد وتمتد، عندها يمكن البدء في تناول القضايا الشائكة. بالتالي، فكما في التعليم ننتقل من المعلوم إلى غير المعلوم، هكذا في الحوار نحن ننتقل من القضايا المتفق عليها بيننا – والتي بناءً على عدم درايتنا ببعضنا البعض نتيجة لقرون من العداء، سوف تتطلب منا أن نقضي بعض الوقت لاكتشافها بصورة كاملة – إلى مناقشة القضايا محل الاختلاف.

الوصية التاسعة: *يجب على الأشخاص المشاركين في الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات أن يتحلوا على الأقل بالحد الأدنى من القدرة على نقد الذات سواء لأنفسهم أو للتقليد الديني أو الإيديولوجي الذي ينتمون إليه.* إن الافتقار إلى هذه القدرة على نقد الذات إنما تعني ضمناً أن هذا المرء يعتقد أن التقليد الذي ينتمي إليه يحتوي على كل الإجابات الصحيحة. مثل هذا الاتجاه ليس فقط يجعل الحوار غير ذي جدوى بل مستحيلاً، وذلك لأننا نشارك في الحوار بصفة أساسية لكي نتعلم – ومن الواضح أن هذا سيكون مستحيلاً طالما أن التقليد الذي ننتمي إليه لم يقع في زلة واحدة على الإطلاق، وأنه يمتلك كل الإجابات الصحيحة. لا شك أنه في الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات ينبغي على المرء أن يعبر عن انتمائه للتقليد الديني أو الإيديولوجي الخاص به بكل أمانة واقتناع، غير أن هذه الأمانة والاقتناع يجب أن تتضمن، لا أن تستبعد، إمكانية للقيام بنقد للذات بصورة صحية. وبدونها لن يكون ثمة أي حوار – بل بالفعل لن يكون هناك أي أمانة.

الوصية العاشرة: *على كل مشارك أن يحاول في النهاية أن يختبر ديانة أو إيديولوجية الشريك الآخر "اختباراً من الداخل."* لأن الديانة أو الإيديولوجية ليست أمراً محصوراً في العقل، لكنه يمتد إلى الروح والقلب و"الكيان بأسره" للأفراد والجماعات. هنا يتحدث جون دان (John Dunne) عن "العبور" إلى الخبرة الدينية والإيديولوجية للآخر، ومن ثم العودة مجدداً باستنارة وامتداد للأفق وتعمُّق.]انظر John S. Dunne, *The Way of All the Earth* (New York: Macmillan, 1972)] وبينما نحافظ على التزامنا وأمانتنا الدينية، فإننا نحتاج أيضاً إلى إيجاد سُبُل لاختبار قدر من القوة الروحية والشعورية للرموز والوسائط الثقافية الخاصة بديانة الشريك الآخر في الحوار – ومن ثم العودة مجدداً إلى خبراتنا الخاصة ونحن نتمتع بحالة من الثراء وامتداد للأفق، وقد اختبرنا على الأقل قدراً ولو ضئيلاً من الجانب المؤثر لديانة أو إيديولوجية الشريك.

إن الحوار بين الأديان أو بين الإيديولوجيات يعمل في *أربعة مجالات* – "حوار العقل والأيدي والقلب والمقدسات": الحوار *العملي* (حوار الأيدي)، فيه نتعاون معاً لأجل مساعدة البشرية؛ المجال *الجمالي/الروحي* (حوار القلب) فيه نجتهد لكي نختبر تعبيرات الشريك عن الجمال ونختبر ديانته أو أيديولوجيته "من الداخل"؛ وفيما يتعلق بالجانب *المعرفي* (حوار العقل)، ففيه نسعى لفهم الحقيقة، أما المجال الرابع، *المجال التكاملي* (فهو حوار بشأن المقدسات).

الحوار بين الأديان وبين الإيديولوجيات يقوم على *ثلاث مراحل أساسية*. في المرحلة *الأولى* نقوم *بكشف المعلومات الخاطئة* عن أحدنا الآخر والبدء في التعرف على الحقيقة الفعلية لكل منا. في المرحلة *الثانية* نبدأ في تمييز القيم النبيلة في التقليد الذي ينتمي إليه الشريك الآخر ونبتغي أن نجلب هذه القيم إلى تقليدنا. على سبيل المثال، في الحوار البوذي-المسيحي، ربما يتعلم المسيحيون أن يمنحوا تقديراً أسمى للتقليد التأملي، بينما يمكن للبوذيين أن يتعلموا منح تقديراً أكبر للتقليد النبوي القائم على العدالة الاجتماعية – وكل من هاتين القيمتين ترتبط تقليدياً بشكل قوي، وإن لم يكن حصرياً، بجماعة الشريك الآخر. فإذا كنا جادين ومثابرين ومراعين للآخرين بقدر كاف في الحوار، فربما ننتقل في وقت ما إلى المرحلة *الثالثة*. هنا نبدأ معاً في اكتشاف أبعاد جديدة للواقع وللمعنى وللحقيقة، والتي لم يكن أي منا على دراية بها من قبل. نحن الآن نصير في مقابلة وجهاً لوجه مع هذا البُعد الجديد للواقع والذي لم يكن معلوماً لنا من قبل. وهذا قد تحقق فقط نتيجة للأسئلة والرؤى والاستكشافات التي صارت متاحة عبر الحوار. عندها ربما نتجرأ على القول إن الحوار الذي نثابر في تطويره يمكن أن يصير أداة "إلهام" جديدة، وكشف آخر للواقع – والذي يجب أن نعمل بناءً عليه بعد ذلك.

ثمة شيء مختلف اختلافاً جذرياً فيما يتعلق بالمرحلة الأول من ناحية والمرحلة الثانية والثالثة من الناحية الأخرى. فيما يتعلق بالمرحلتين الأخيرتين، نحن ببساطة لا نقوم بإضافة أعداد أخرى من الحقائق أو القيم من التقليد الذي ينتمي له الشريك في الحوار. في الواقع، بينما نحن نستوعب هذه القيم في إطار فهمنا الذاتي لديننا، فإنها سوف تُحدث تغييراً نسبياً في فهمنا لأنفسنا. وحيث أن شريكنا في الحوار سيكون في موقع مماثل، فسيكون باستطاعتنا أن نشهد شهادة أصيلة عن تلك العناصر ذات القيم العميقة في التقليد الخاص بنا التي ربما يمكن لتقليد شريكنا في الحوار أن يستوعبه محققاً مقدار من التغيير الذاتي المفيد. وبالطبع كل هذا يجب أن يتم القيام به بأمانة كاملة على كلا الجانبين، ويجب على كل شريك أن يظل مخلصاً إخلاصاً أصيلاً للجوهر الحقيقي لتقليده الديني. غير أن هذا الجوهر الحقيقي لا شك أنه سوف يتم إدراكه واختباره بكيفية مغايرة تماماً نتيجة لتأثير هذا الحوار؛ ولكن لو أن الحوار يُجرى بأمانة وانفتاح، فستكون النتيجة، أن يصير اليهودي، على سبيل المثال، أكثر أصالة في يهوديته والمسيحي أكثر أصالة وإخلاص في مسيحيته، *ليس على الرغم من* حقيقة أن اليهودية و/أو المسيحية قد وجدت وتبنت بعضاً من القيم الأصيلة عند التقليد الديني الآخر، *بل نتيجة لكونها فعلت ذلك*. لن يكون هناك مكان للحديث عن التحزب الطائفي هنا، لأن التحزب الطائفي، لكونه ينتقص من الآخرين، يعني تلفيق عدة عناصر من ديانات مختلفة ودمجها في نوع من المجموع المشوش دون أي مراعاة للأمانة تجاه الأديان المشاركة – وهو ما يتنافى مع الحوار الحقيقي.